روح الإسلام

نجزم أنه إن كان هناك جو يسمح لبني الإنسان أن يتنفسوا منتعشين فما هو إلا جو الإسلام. فلم تزد النُّظُم المفروضة على الإنسانية جمعاء إبان القرن أو القرنين الأخيرين إلا اضطرابا وشقاء. وأول الداء أنها جميعاً كانت غريبة عن روح الإنسان غربة بعيدة. وربما ائتلف الإنسان مع بعضها ائتلافاً مؤقتا، لكن الرفض وعُسْرَ القبول الداخليَين لم يسكنا أبداً. وكان ذلك يولّد في كثير من الناس شكوكاً سارية في البواطن حيال كل الأنماط والنُّظُم الفكرية، فكان من الطبيعي أن يكون هذا النوعُ من انعدام الثقة والشك والتوجس سبباً لأزمات جديدة. لذلك صار كل نداءٍ جديد وكأنه سبب لأزمة جديدة ويستتبع رفضاً جديداً. ولا عجب في ذلك، لأن هذه النظم المفروضة على الإنسانية كانت تستند على افتراضات تنطوي على ثغرات واسعة وكثيرةٍ في العلاقة بين الحياة والكون والخالق. ومن جانب آخر، إنَّ نَقْص العلم بماهية الإنسان، بل الجهل بها، وكذا إقصاء الحياة القلبية والروحية للإنسان إقصاءً كليا، هما من النواقص المهولة التي لا يملأ شيءٌ الثغراتِ الحاصلةَ من جرائهما في هذه الأنظمة.

ولم يتيسر لأي نظامٍ وَضْعُ توازنٍ بالغ الدقةِ في تصور العلاقة بين (الإنسان - الكائنات - الله) من غير تركِ فراغاتٍ إلا للإسلام. فإن التشكُّلاتِ المعنويةَ أو المنظوماتِ الماديةَ قبله، أو النُّظُمَ والتيارات التي

وَعدت بالخلاص والأمل بعده، لم تُشبِع حاجاتِ الإنسانية، بل قَصُرَتْ عن الآمال التي وَعدت بها. و"الغلطُ" العظيم اليوم هو الانصراف إلى إشباع الرغبات الجسمانية في حين أن لَـهَفَ الإنسانية أو حاجتها تَرجع إلى الجوع القلبي والروحي. إن الكد في إشباع الجوع واللهف المعنويَين بتسمين الأبدان لا يختلف عن إرواء الظمآن بماء البحر!. ومنذ سنين وسنين تعيش الإنسانية جمعاء، وعالَمُنا خاصة، في هذه الحلقة المفرغة... فكلُّ حملة وهمَّة لإشباع رغبات الإنسان البدنية، أبعدَتْه عن الروح مسافة أخرى، وكلُّ انسياق منه نحو الابتعاد، وَلَّدت فيه لونا جديدا من الهذيان!. وكلَّما طال توجُّعُ الإنسان في قبضة حاجاته الجسمانية جراءَ خواءِ حياتِه القلبيةِ والروحية في هذه المرحلة، ازداد وقاحةً باعتبار البدن، فنَصب مطالبَه النفسانية حاكما وحيداً على القيم الإنسانية جمعاء. والحال أن الابتعاد عن روح الإسلام هو السبب الأساس الكامن لمعاناة الإنسانية جمعاء من جوعٍ وعطشٍ حقيقيَين.

وإذ نقول "روح الإسلام"، لا نعني حاله الذي يبدو في واقعنا الحاضر ومن زاوية نظرنا ووِجهةِ تقويمنا له، باهتا وذاويا وفاقدا بَريقَ جاذبيته السماوية. بل بألوانه ورقوشه البراقة، وكما كانت -ولا زالت- أرواحٌ طاهرةٌ تستشعره فتتذوقه، وكما أحسَّه إنسانُ عصرِ السعادة[1] وعاشه. هذا الروح لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه، طاهراً أبداً، ندياً، عميقاً لا يتكدر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمانٍ أو مكانٍ. لكنَّ الوصولَ إليه وتمامَ الاستفادة منه يتطلب تثبيتا للنية وتسديدا لزاوية النظر، وعلوا في الهمة وثباتا في المثابرة، وصدقا في التوجه وثقة بالأصل الذي ينتمي إليه.

[1] عصر السعادة: هو الفترة الزمنية التي عاشها الرسول ﷺ.

ومهما كان الروح هذا كاملاً وربانيا وفعَّالا، فلن يستفيد منه منتسبوه وممثلوه استفادة تامة، مع عظم ثرائه وسعته، إلا بنية سليمة متمادية، ونظرٍ وتقويم صائب، وعزم ثابت على الكشف والاجتهاد، واعتقاد واطمئنان إلى إن كل مطلوب ومنشود هو فيه. وبغير ذلكم يصعب عليهم التغلب على الجوع والفقر وشتى الاحتياجات والعلل، حتى ولو قضوا عمراً في الالتصاق بهذه الخزينة السماوية... لأن العالَم الذي لم يزل يُمَدُّ بغذاء القرآن والسنة لن يطمئن بشيء غيرهما. وأنا شخصيا أومِن بأن كثيراً من معضلات العصر المستعصية ستنحل، وكثيراً من أمواج الأزمات والدواهي المتلاطمة ستتكسر أو تتلاشى أضرارها في أقل تقدير، ذلك في حال التمسك بالقرآن والسنة وإدراك مراميهما بالدرجة التي كان عليها المخاطَبون بهما في العصور الأولى.

والحقيقة أن الإسلام في عالمنا، كان -وما زال- مصدرَ غذائنا الأصل كحليب أمهاتنا، وكان له الدور الأساس في توجيه مشاعرنا وأفكارنا وتقويماتنا، وكان رفيقَنا في بيوتنا، وهواءَنا الذي نتنفسه في حياتنا أبداً، ولم نشعر قط بغربةٍ أو وحشة حياله. وبالمقابل، فكم طَرقتْ الأيديولوجياتُ والمبادئُ الغريبةُ المَنشَأ أبوابَنا وهزت نعراتُها أزِقَّتَنا، لكنها لم تَلِج دواخلَنا، ولم تمتزج بأرواحنا، ولم تَكُنْ لنا أو نكن لها البتة؛ بل أثارت حفيظتنا من أول وهلة، لغرابة صورها ووجوهها، وأثارت شكوكنا فيها، وتقززت بيئتُنا الفكريةُ منها، فلم تجد لها محلاً في جسم أمتنا إلا بمقدار الضعف الذي أصاب جهازنا المناعي.

لقد كان الإسلام -وما يزال- يحتضن حياتَنا وحاجاتِنا وهياجَ مشاعرنا، بحيث إننا وجدناه قريباً منا في وطننا وجغرافيتنا ومُدُنِنا وبيوتنا إلى درجةِ

أن كثيرا من حركاتنا وتصرفاتنا وفعالياتنا كاد يصطبغ بشيء كثير من ألوانه؛ فصبغته في سلوكياتنا وأعضائنا، ومَدُّه وجَزْرُهُ في أذهاننا، وصوتُه ونَفَسه في قلوبنا، وآثارُه على وجوهنا، وثَفِناتُه في رُكبنا وكعوبنا، وفواصلُه المُريحة لنا إبان تَعَبِنَا، وإلهاماتُه الداعية إلى التفكر إبان راحتنا، وتصرفاتُه في أرواحنا، ومشاركته لنا في أموالنا، وكونُه صاحبَ القول الفصل في حياتنا الفردية والعائلية، وحضُّه الصادقُ لنا على التحابب والتعانق فيما بيننا، ووعوده بالخلود في انبعاث آمالنا وأمانينا، وحلوله المتوازنة التي ينشرح لها القلب في مسائل الحق والعدالة والمساواة... كل هذا ربَطَنَا به من أعماقنا، بل جَعَلَنا مُدمِنين عليه، حتى إنه لو تخلى عنا يوما -لا سمح الله- فأظن أننا سنهلك هماً وغماً وكمدا.

لقد استغلت نُظُمٌ معلومة قِيَماً مثلَ الحق والعدالة والمساواة والأمن العالمي كوسيلة للوصول إلى أهداف معينة، أو لتحقيق بعض المبادئ والتعاليم. أما الإسلام، فقد تَطلَّع إلى هذه القيم العالمية في نقطة الالتقاء بين سعادة الناس ورضا الحق تعالى، فحَقَّق إرادةَ الله تعالى ومطالبَ البشر في آن واحد. وهو يطالب المسلمين بأن يتمسكوا هم أيضا بهذه النقطة. وبناء على هذا فالمسلمون إذا رعوا "الحق" و"العدالة" و"المساواة" بدرجةِ أهمية الموضوع، ولم يستخدموا هذه الأفكار السامية كمطايا لتلبية رغباتهم الجسمانية والنفسانية، وأداموها مشدودةَ الوثاق بالحق تعالى، فليس ببعيد أن يصلوا -إن لم يكن في العاجل ففي الآجل- إلى مقام يُغبَطون عليه.. هذا المقام هو مقام فيه يحبون الله، ويحبهم الله، ويغبطهم البشر. إن الدافع الأول في حيازة هذا المقام هو قوة الإسلام التي لا تُقهَر، ونمطُ حياةِ المسلمين المغبوطة.

إن الإسلام لا يحتاج إلى دعايات كحاجة الأيديولوجيات والمبادئ المستوردة من الخارج؛ فمرجعيته هو ذاته وسلوكياتُ ممثليه الأوفياء. إنه يحث دائما على الوقوف بجانب الحق والنهوضِ به، ويَعُدُّ توقير الحق واحترامَه أكبر العبادات. يقول "محمد عاكف" في بيت له (ترجمته):

"الحق مِن أظهرِ أسماء الخالق الحسنى والتي ما لها عد...

فما أعظمه شرفاً أن يَنهضَ العبدُ بالحق وعنه يذودَ".

فقد قال هذه الفكرةَ اللطيفة في إطار تلك النكتة الفريدة المذكورة آنفاً، ونحن نعدُّها صوتاً ونفساً لحقيقةٍ لن نتخلى عنها أبداً.

الإسلام يتحرك أبداً وفاقاً لقاعدةِ "القوةُ في الحق"، ولا يستسلم أبدا لتسلط القوة الظالمةِ أو الجامحة. فهو يقف منتصباً ويمشي رجولةً، لا يُشجّع الظلم، ولا يخضع للظالم، فيقول كما قال "الشاعر باقي" (مترجماً):

"لن يشوب وجوهَنا للأرذال تذللٌ...

لِدنيا دنيئةٍ...

وبالله اعتصامنا وعليه التوكل"...

ثم يمضي إلى غايته.

إن التوازن بين الحق والقوةِ موضوعٌ مهم يتطلب اهتماما خاصا وشرحا وبسطا أوسع. ولكنا سنكتفي الآن بالإشارة إليه، ونؤخر تفصيله إلى وقت آخَر.

إن الإسلام يَعتبر العدلَ والاستقامة -في أوسع أُطُرهما- نمطَ حياةٍ للفرد والعائلة والمجتمع.

نعم، إن الفرد الذي رَبَطَ حياتَه بالإسلام، يفكر في استقامةٍ ويعيش في استقامة، ويسعى للبقاء في إطار الحق دائماً، ويتخذ موقفه ضد الظلم

والحيدِ عن الحق، بدءاً من نفسه، ويسعي جاهدا للحفاظ على حقوق الآخرين مثلما يسعى للحفاظ على حقوق نفسه، بل يرعاهم أكثر بدقة متناهية. فيعيش حياة موزونة وكأنها مشدودة إلى ميزان.

إن موضوع العدل والاستقامة أيضا من المواضيع التي يجب أن تُتَنَاوَل وتُحلَّلَ بإسهاب، ولكن إطار هذه المقالة لا يتسع لذلك.

والإسلام يعُدُّ المساواة مَطلبا للحق تعالى ولازماً من لوازم توقير الإنسان، ويَعُدُّ الإخلالَ بها أو إبطالها جرماً عظيماً بحق الإنسانية. فهو يتخذ موقفا واضحا ضد التمييز بسبب اللون أو العِرق أو الإقليم أو الطبقة الاجتماعية، ولا يَفْتُرُ في الكفاح الفكري ضد هذا الفهم المنحرف في كل مجال. والإسلام يهتم اهتماما بالغا بمراعاة فوارق الاستعداداتِ والمهارات ويشجّع على تنميتها، ويَرعى تكافؤَ الفرص والاستفادةَ المتساوية من الإمكانات. فهو يرفض الكيانات القائمة على أساس الأصل والأرومة، ويُبطل -إبطالاً باتا- الحاكميةَ لفئة معينة كنوع من الأوليغارشية[1] (حكم الأقلية) ولو في أي وحدة من وحدات الحياة. إنه يفسح السبيل للمواهب الفردية ويحفز النجاح، ويَعُدُّ ذلك من ضروراتِ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾(الزخرف:٣٢) ولكنه يواصل الكفاح ضد الأفكار المونارشية.[2]

الإسلام يحتضن كل فرد وفئة بنفس المستوى من الدفء والحنان. ويأخذ بعين الاعتبار حاجاتِ الجميع وطلباتِهم في خط سوي واحد، وينادي بصوت جهوري أنْ ليس إنسانٌ فوق إنسان، ويؤكد بلا كلل على

---

[1] الأوليغارشية أو حكم القلة: هي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية.

[2] هي سلطة الأقلية الواحدية، كما هي في الأشكال المَلكية الوراثية وسلطة الحزب الواحد أو الطبقة الواحدة، أو الأشكال المؤسسة على قرابة الدم والتي هي فوق سلطة العائلة الوراثية كالعشيرة والقبيلة.

المساواة وتكافؤ الفرص معاً. ويحمل حملةً لا هوادة فيها على إخماد الاستعدادات في دياجير الإهمال، أو تكبيل القابليات وشلّها في قيود الميلاد غير النخبوي. ويقف منتصباً حيال الصعود والرقي من غير حركيةٍ داخلية للفرد أو جهدٍ صادق منه، ويعلن على الملأ أنَّ هذه الحال غير أخلاقية، ويُرجِع هذه السلوكيات اللاأخلاقية إلى بؤس الروح وانحطاطه.

والإسلام يسعى إلى انتزاع البؤس والانحطاط والذلة من الأرواح، بإزالة الأسباب والدوافع المادية، وبتحفيز قوة الإرادة الفردية بمشاعر الإيمان والمعرفة والإحسان. نعم، إن صيانة الروح من كل أنواع الدناءة والبؤس والانحطاط، إنما يتأتى باللجوء إلى الدرع السابغ المكوَّن من الإيمان القوي والمعرفةِ الواسعة والمراقبة الدائمة. وإن بلوغ الروح بهذه التجهيزات إلى الإشباع والاطمئنان يَفتح عين الإنسان على أمور حياتية فائقة الأهمية وفوق أمور البدن والجسمانية بأبعاد شاسعة. وعلى الضد، فالمحرومون من التجهز بهذا الجهاز يتعسر -أشد العسر- صونُهم للقيم الإنسانية وصمودهم أمداً طويلاً. فبؤسُ الروح وانحطاطُه يبعِد الفرد عن ذاتيته، فيكون عرضة للانجراف إلى هنا وهناك، والانصبابِ في هذا القالب أو ذاك، وينجرُّ إلى انفصام لا مفر معه من الوقوع في خدمة أبواب الأسياد، والاسترقاقِ لهم عاجلاً أو آجلاً.

ونحن نؤمن بأنا إذا تَفَهَّمنا الحركيةَ التي أوجدتها -أو توجدها- العقيدةُ الإسلامية في القلوب المؤمنة، فسنفهم الأسباب والدوافع الحقيقيةَ للهبوط والصعود أو السقوط والارتقاء على مستوى الفرد أو المجتمع، بل وسندرك -من جديد- الأسسَ المهمة التي نجمع بها شملنا ونرجع بها إلى وعينا ونلحق بالقافلة التي تأخَّرنا عنها. وأنموذجُنا الذي نَحتذِي به في هذه

القضية هي أصولنا الذهبية التي حَملتْ الراياتِ في مراحل الارتقاء كافة، وفي المقدمة رجال عصر السعادة (النبوية). فإذا استَقْوَينا -في خط فهمهم ذاك- بماضينا التليد كمصدر سرعةٍ منطلقة "عن قوة الطرد المركزي"، وتَمَسَّكْنا بجذورنا المعنوية الذاتية أشد التمسك، "وتوكَّلنا على الله، وتشبثنا بالسعي والعمل، واستسلمنا للحكمة الإلهية" (كما قال عاكف) -ولا بد من ذلك-، فحينئذٍ لا شك ولا ريب في أن القمم التي تبدو وكأنها عصية على العبور ستتمهد، وستنبسط السهول بلا عوائق.

إن مجتمع عصر السعادة والمهندسين العظام لتاريخ أمتنا، هم الذين مثلوا الإسلام حق التمثيل، سواء في حياة "الفكر والحركية"، أو في عالم الوجدان. فقد نشأوا وتربوا في ظل القرآن والإقليم الفياض للإسلام، وعاشوا أعمارهم في أفقٍ صعبِ المنال يَفصل بين الفناء والخلود.

إن تحول هذا المجتمع الذي كان قبل الإسلام صلبا للغاية، بل وحشيا ومتعصبا لعاداته ومعانِدا أشد العناد ومتهاويا بالأخلاق السيئة والعادات الفاسدة... إن تحول هؤلاء بحملة واحدة إلى جماعة أنموذجية؛ بعقلها وقلبها وروحها ونَفْسها ليس إلا معجزة باهرة للإسلام. فهؤلاء أنصَتوا للقرآن وتربوا بغذاء القرآن وعشقوا صاحب القرآن ﷺ، فإذا بهم يجدون أنفسهم في صعيد البناء والإعمار والإحياء بعوالمهم الشعورية والفكرية والحسية... لقد تبدلوا من أخمص القدمين إلى ذروة الرأس بحماسِ انبعاثٍ جديد، واجتَنَبوا الأخلاق السيئة والعاداتِ القاتلة، وحارَبوا -بلا هوادةٍ- جميع الرغباتِ الجسمانيةَ غيرَ المشروعة بمخالفتهم الدائبة للنفس، وكممثلين فضلاء لنظام فاضل عَقَدوا العزمَ على "إحياء الآخرين"، ففَضَّلوا "إحياء غيرهم" على حياة أنفسم، وكرسوا حياتهم

لإسعاد الآخرين، وظلوا يقظين وحذرين دائما حيالَ أيّ انزلاق، بملاحظة احتمال الضعف البشري. وفي حال تعثُّرهم بالمعاصي توجَّهوا إلى الحق تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة بقلوبٍ خالصة أشد الخلوص، وتحروا على الدوام عن سبل الارتقاء العمودي، فعاشوا مبرمَجين على التحليق في الشواهق. لم يستسلموا قط بل صمدوا شامخين حيال أي انسحاق ينشأ عن قلتهم، أو وحشةٍ تنبع من الغربة والوحدة، أو تعرُّضِهم -بين حين وآخر- لأنواع الاضطهاد والتخويف والغبن والظلم والحرمان. وإلى جانب هذا المستوى من المقاومة الصامدة تَصرَّف كل واحد منهم وكأنه "فدائيُّ المحبة"؛ فاحتضنوا كل أحد وفتحوا لهم صدورهم واحترموا أفكار الآخرين وسعوا من أجل تحقيق المتطلبات اللازمة للارتقاء إلى مستوى "الإنسان الكامل". صنعوا عالماً جديداً كل الجدة بالمعارف المنسابة إلى أرواحهم من القرآن والسنة، وحققوا على أرض الواقع قيمَهم الإنسانية الكامنة فصاروا قدوة للآتين من بعدهم.

أولئك هم جذورنا الذين توجهوا إلى الخالق ووجدوا قبلتهم الحقيقية؛ فبالعبودية للحق انعتقوا من العبودية للهوى، والعبوديةِ للقوة، والعبوديةِ للشهوة، والعبوديةِ للشهرة وغيرها من أنواع العبوديات... وتجردوا من السفالات التي تُلقي بالإنسان في أحضان البؤس. نحن كنا أولئك، ونحن اليوم "تمثُّلُهم" في الحاضر، وهم أصولنا، وسيكون الآتون من بعدنا هم فروعنا.

نحن أبناء الإسلام؛ أَنْصَتْنا إليه في تنهيدة الأمهات في بيوتنا، واستمعناه في صرير المهاد، ورضعناه من أثداء أمهاتنا، وتنفسناه في هوائنا. كان الإسلام أبداً في شغاف قلوبنا، ولم يقف غريباً عنا بتاتا.

نظامنا الفكري من وجهة أخرى

إن العقل والقلب والفكر وأحاسيس الإنسان وكذا الوحي بكل ثمراتها، وأمور أخرى غيرها... لها جميعا في نظامنا الفكري أهميةٌ بالغة وكأنها وجوه متنوعة لشيء واحد. ونستطيع القول دائما بأن هذا النظام أوسع وأرحب من غيره من حيث سعة المساحة التي استقر عليها.

لأن الإسلام رعى دائماً هذا الانفتاح والسعة في رسائله وتبليغاته إلى الإنسانية. فإنه إذ أقام مناسباته مع المخاطَبين والمنتسبين إليه، اتخذ -في إطار مرجعية العقل- سبيلَ حوارٍ فكريّ البعد، متلون بالمشاعر، مستند إلى الوحي، ورحيب بالإلهام، وبنى أحكامَه على أسس تربط بين الإنسان والوجود والخالق، متينةٍ وملائمةٍ للمحكمات القرآنية ومعقولةٍ ومنطقيةٍ.

إن هذه المناسبة التي أسسها الإسلام على ضوء القرآن لهي الأشد قوة، والأفضل توافقاً مع الحس الإنساني والأقربُ إلى محاكمته الفكرية، حتى إننا لا نجد في نظام قبله ولا بعده مثيلاً له في رعاية التوازن بين العقل والقلب والروح.

نعم، إن الإسلام هو النظام الأمثل والأنسب مع سجية الإنسان وطبيعته؛ سواءٌ من وجهة عالمه الداخلي الضيق أو من وجهة علاقته بالعالم الكبير الشامل، ولا يوجد مثيل ولا شبيه له في الاستجابة لحاجات الإنسان، ولن يوجد!. وهذا الحال طبيعي للغاية، لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي

النقي، وتفسيره الأول هي السنة؛ فكما القرآن معجز، كذلك نظامه المنبثق والمكوَّن من خطاباته وتعاليمه معجز.. وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل أو نظير للإسلام الذي يعد من آثاره.

في العالم النوراني للقرآن، يتغير الوجود والأشياء والطبيعة فجاءةً، وتتحول هذه الأمور وتأخذ صورا مختلفة، ويبلغ الإنسان وأحاسيسُه المادية والمعنوية إلى أعماق غير معهودة، ويسمو العقل -بفضل ذلك البيان المعجز- إلى رؤية الأشياء على حقيقتها، ويتمكن القلب في جوه النيّر من التفسح تماماً فينمو ويتطور، والروح إنما يحلّق بأجنحة وَارِدَاتِه، فيعلو إلى "عرش كماله" (كمال الروح).. يعلو إلى أن يربط كلَّ شيء بـ"سلطنة القلوب". هذا ما حصل أمس، وهذا ما يحصل اليوم، وهذا ما سيحصل غداً. ويكفي لتحقيق ذلك أن يستشعر المؤمنون القرآنَ ويتشربوه بعواطفهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم... فيستشعروه غضا طريا صافيا نورانيا يؤجج مشاعر مخاطبيه كما كان في عهد نزوله. والواقع أن الذين لديهم استعدادٌ وقوةُ إحساسٍ ظلوا يجدون في القرآن نفحاتِ العشق والإثارة والشوق والاشتياق، وأن من أنصتوا إليه بأُذُن القلب انتفضوا دائماً بنداء "الانبعاث بعد الموت" المسموعِ منه عاليا.

نعم، إن القرآن قد جاء بمفهوم مختلف لـ"الجهاد" من حيث كنهه ونكتته؛ جهادِ تحفيزِ الناس ليتعرفوا على أنفسهم وذواتهم.. وجهادِ إنشاء العلاقة مع الوجود كله.. وجهاد التمرد على الجسمانية والنفسانية.. وجهاد أن ينتصر المؤمن على نفسه ويفتحَ قلعةَ ذاتِه من الداخل.. وجهاد الاستعدادِ المستمر واتخاذِ الموقف الواضح ضد كل العواطف والغرائز التي تهبط بالإنسان من أمثال: العداوةِ والحقد والكراهية والشهوة والضغن

والحرص والحسد.. وجهادِ أن يربط كلُّ أحد نفسَه بفكر سام وهدف عال.. وجهادِ تخطّي كل المخاوف والتطلعات.. وجهادِ اعتبار الدنيا غرفةَ انتظارٍ للآخرة وإحياء الأخرويات وإعمار ما هنا كسبيل إلى ما هناك إلى غير ذلك من أنواع الجهاد الكثيرة.

لقد ظل القرآن -قرابة ربع قرن- يقدم للناس معظم رسائل الجهاد من هذا القبيل، حتى نما بتبليغاته الباعثة على الحياة، فصار ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤) فانتشر وحوَّل مساحات واسعة إلى جناتٍ... نعم، كانت كل آية في عهد النزول كأنها صوت شلالٍ هادر، وماء كوثر عذب متدفق كفواراتٍ دائمة الانبجاس، وبالأحرى، كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية. فكان المشتاقون الطافحون رغبةً يجْنُون هذه الفواكه فور ظهورها بمنتهى الحماس، ويقدمونها لتقدير القلوب والأرواح ويتتابع التقديم والتقدير كرة بعد كرة بلا فتور، ويقعد ويقوم أولئك المحظوظون كل يوم على هذه المائدة السماوية الآخذة بالألباب. فبفضل هذه الخطوة، كان أولئك المخاطبون المتدفقون حيويةً، يعيشون -بزخاتِ غيث الوحي الهاطل كل يوم على آفاقهم- "انبعاثاتٍ بعد الموت" متشابكةً ومتداخلةً كأنهم سمعوا صوت الصُّورِ من اللانهاية، فيغدو كلٌ منهم "خضراً"، فيَنفخ روح الحياة في كل من يمر به... وكانوا يتسلقون ذرى حظوظهم السعيدة "بانبعاثاتٍ" تترى، في حيوية عظيمة دائمة، واشتياق طافح لا يستكين، ورغبات جياشة. الله تعالى يناديهم إلى الانبعاث في العواطف والفكر والروح والقلب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤)، وهم بدورهم يردون على هذا النداء من دون تردد فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾(آل عمران:١٩٣) ويهرولون لتلبية هذه الدعوة الإلهية.

إن سر حيويتهم الدائمة فيهم كامن في الجو الذي كانوا يعيشونه؛ فأولئك كانوا يستمعون إلى القرآن بقلوبهم ومن غير حكم مسبق، ويؤمنون به بإخلاص تام، ويتوجهون إلى الله في نور هذا الكتاب الجليل، ويحبونه من أعماق قلوبهم.. وكانوا لا يتوقفون عند حدود الحب، بل كانوا يسعون -بكل شوق عميق- في سبيل تحبيبه إلى كل الناس وجعله مقبولا لديهم. يعتنون أشد الاعتناء لئلا تتلطخ مشاعرهم وأفكارهم الإسلامية بألوان نزواتهم، ويسعون إلى الترنم بالإسلام وتمثله بذات لونه ونقوشه وبهائه، فلذلك كانوا يتلقون من المخاطَبين "الجواب الصواب".

ففي هذا الجو المضيء النيّر كان الإسلام والقرآنُ يُفهَمان على حقيقتهما؛ فيَصِل إليه الجميع بلا عنت ولا رهق ولا عائق، ويفهمونه، ويرون فيه بعين القلب عظمةَ الحق تعالى، ويقيّمون كل شي تقييما صحيحا بعقولهم ومنطقهم ومحاكمتهم التي لم تفسد بالدرن والحكم المسبق. ولم يكونوا يَجمُدون عند العلم المجرد مطلقا، بل يُردِفون العمل بالعلم من فورهم، ويضعون "التمثل" قبل العلم، ويُحوّلون المعلومات وما حصَّلوه من معارف إلى قوة محرّكة، فيحوّلون علومهم النظرية إلى واقع عملي بيسر وسهولة. فهؤلاء أدركوا في وجدانهم الرحيب الغاية من خلق الإنسان وخلق الوجود، فتذوَّقوا في التوجه إلى الله ومعيتِه تعالى ما يجده غيرهم في المادة والحظوظ الجسمانية والرغبات النفسانية، وتخلصوا من كل ضيق يتعلق بالجسمانية وانفسحوا كل يوم في إقليم القلب الواسع الرحب إلى عمق جديد.

لقد تكررت الحياة -ولو بفواصل زمنية- في ظل تفسيرٍ قرآنيّ سليم، وتصوُّرٍ إسلاميّ مستقيم، وبالأحرى في نظامِ حياةٍ نابع من التمثل بالإسلام، ذي الأفق السماوي المذهل للعقل، بحيث لم يبلغ الخيالُ شأوَه حتى في تصورات المدن الفاضلة المثالية. ومَن يدري لعل تلك الحياة القرآنية ستتكرر مرات عديدة فيما يأتي من الزمان!؟ فما من عائق يحُول دون الحياة الروحانية بهذه الدرجة مهما تغير الزمان وتحولت العصور.

وإن مثل هذه الحظوة يمكن أن تتحقق في الحاضر أيضاً، إذا تشبَّع المسلمون -في إطارِ ما أشرنا إليه آنفاً- بروح كفاحٍ مكين، ولم ينقادوا للفتور مهما كانت الظروف، وتصرفوا دائما بوعيٍ وانتباه، وتعالوا على النفس والجسمانية فأداموا حياتهم حسب أفق القلب والروح، وظلوا يقظِين ومنتبهين حيالَ أيّ مساوئ قد تصدر منهم بمقتصى طبائعهم وماهيتهم البشرية، ولم يتركوا مجالا لظهور أي فكرٍ سلبي في عوالمهم الداخلية.

وإن من أهم جوانب العمق في التصور الإسلامي هو دعوته إلى إعمار الحياة الدنيا التي قد تبدو مستحقرة لدى البعض، وذلك بربط كل شيء برضا الحق تعالى، وإلى جعْلِ الدنيا مكانا مغبوطا ومحبوبا بترتيبها وتجهيزها على اعتبار أنها غرفةُ انتظارٍ ومَمَرٌّ إلى الآخرة... فيمكن في إطار هذه الفكرة النظرُ إلى الدنيا على أنها مزرعةٌ ومَعْبَرٌ وميناءٌ ومنطلَق للوصول إلى الآخرة.

نعم، إن الإسلام إذ يحاور مخاطبيه، يَأخذ بنظر الاعتبار كلَّ مشاعرهم الظاهرة والباطنة، وكلَّ أعماقهم من أمثال الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك... إنه يَعتبر الإنسانَ كلاً جامعاً مع لطائفه وأحاسيسه، ويخاطبه في هذا الإطار، فيستجيب لرغباته ويسد احتياجاته الطبيعية والبشرية،

ويمهّد له البيئةَ الصالحة لانفساحه بيسر في كل زمان وفي كل مكان.

ومن خصوصيات نظام الفكر الإسلامي اعتمادُه على مرجعية الكتاب والسنة أكثر من سائر مصادر العلم والمعرفة. فهو بهذا الوجه يتميز عن التنظيمات الدينية والتيارات الفلسفية كلها. فالإسلام منذ ظهوره، باعَدَ بينه وبين الميراث القديم والتنظيماتِ المتنوعة التي تظهر بصورة الدين، وأراد أن يبقى بكيانه وذاتيته... ومع أنه وقَّرَ ما هو غير محرَّف ومبدَّلٍ منها وسماها "شَرْع مَنْ قَبْلَنَا"، لكنه بقي في الأصل مستَمِدّاً من المصادر الأساسية التي نعتبرها "المنهل العذب المورود".

والحق أن الإسلام لم يكن -في أية حال- بحاجة إلى الميراث القديم أو الأحلام والفانتازيات الجديدة. وكيف يحتاج إليها وكان سنده القرآن؟ القرآنُ "المتضمّنُ -إجمالاً- كلَّ الكتب التي جاء بها الأنبياء في مختلف العصور، وكلَّ رسائل الأولياء بأنواع مشاربهم، وكل آثار الأصفياء بمسالكهم المتشعبة.... اللامعُ من كل جهاتِه، من فوقه وتحته، وأمامه ووراءه، ويمينه وشماله... المنغلقُ تجاه كل الأوهام والشبهات... كتابٌ نقطةُ استنادِه الوحيُ السماوي والكلامُ الأزلي باليقين... وهدفه وغايته السعادة الأبدية بالمشاهدة... وباطنه صريحُ الهداية الخالصة... وأعلاه أنوار الإيمان... وأسفله الدليل والبرهان، بعلم اليقين... ويمينه تسليم القلب والوجدان، بالتجربة... وشماله تسخير العقل والإذعان، بعين اليقين... وثمرته رحمة الرحمان ودار الجنان"[1]. لذلك لم يجد الإسلامُ المتغذي من هذا الكتاب حاجةً أبداً لا إلى تخيلات المثاليين ولا إلى محصلاتِ منطق الواقعيين، ولا أصولِ وطرق التجريبيين أو

[1] من الكلمات (الكلمة الخامسة والعشرون)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص: ٤١٩، دار النيل ط١، ٢٠٠٨، القاهرة. بتصرف يسير.

غيرهم، ولم يَرجع إليها ولم يَعتبرها مصادرَ موثوقا بها.

الإسلام يختلف عن النُّظُم السماوية وغير السماوية كافة، بأسلوبه الخاص ومناهجه، وما اقترحه وقدَّمه من حلول للمعضلات البشرية. وهو من كل وجهٍ أنموذجٌ لـ"الكمال" بكل معنى الكلمة. فهو يضع الإنسان في إطار واسع؛ آخذاً بنظر الاعتبار خصوصياتِه الأساسية بتمامها، ومَلَكاتِه الذهنيةَ والفكرية والروحية بمجموعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة... فلا يحصر توجهَه في العقل والفكر، ولا يقوّمه كوجود عقلي ومنطقي بحت، ولا يُهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما يفعل قسم من المدارس الفلسفية. بل الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكله الذي لا يقبل التجزؤَ والانقسام، ويستجيب لمطالبِ أحاسيسه الداخلية والخارجية، ويُعِدُّه بعناصرِ وجوده المادية والمعنوية كلِّها ليكون جاهزاً للسعادة الدنيوية والأخروية وأهلاً لدخول الجنة.

أما تحقيق هذه الأمور من البداية إلى النهاية، فنحيله إلى الأقلام المتخصصة للإسهاب فيها تمحيصاً وتحرياً.

الوقفة النبوية...
بين يدي الله، وحيال الأحداث

إن من نذر نفسه للحق تعالى واستمد العون من الله ﷻ، يمضي في طريق وظائفه ومسؤولياته من دون أن ينظرَ إلى الوراء. لأنه يعرف القوة الذي استند إليها، ويعرفُ مالكه الذي يعمل هو له وهو مطمئن لصواب هدفه والطريقِ التي يسلكها وأنه في رعايةِ من لم يتخل عنه -ولو لحظة واحدة- في هذه الطريق ولن يتخلى عنه. فهو -لذلك- لن يقع في تشرذُم فكريٍّ أو حسي أبداً ولن يكابد تشوشا أو ترددا. بل ينكبُّ على أداء ما كُلِّف به في شعور وحساسية مرهفة، ثم ينتظر النتيجة من الله تعالى في اطمئنان مكين... فيهتمُّ اهتماماً بالغا بترك التدخل في شأن الربوبية ويحصُرُ حركاتِه وفعالياتِه في ابتغاء مرضاة الحق سبحانه. فيعتبر رضاه جل وعلا ركنا أساسيا وضروريا... ولذلك تراه موصَد الأبواب -ما استطاع- حيال كل الأمور التي ليس فيها رضا الله تعالى، وساعياً إلى تجنُّب رغبات النفس ومطالبِها. فإذا توعرت الطرق يوماً وتشابكت السبلُ، واحلولكت الآفاقُ، ودوَّت أصداءُ الاضطرابِ والقلق، فلن يتشكى عن الطريق التي يسلكها ولن يرتبك أو يتقهقر، بل يستعينُ بالله ويتشبثُ بالسعي والعمل ويستسلمُ للحكمة الإلهية.. ويفعل كما فعل سيدنا نوح عليه السلام حيث رفع يديه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾(القمر:١٠)، ثم يلتجئ بتمام الإخلاص والصدق إلى حفظه تعالى

ورعايته ويترقب منه ما يُمُنُّ عليه من لحظة الفرَج ونقطةِ الخروج.

وكما أن من العبادة أن يكون الإنسان على طريق الحق جل شأنه، ويُعرِّفَ الناس بالحق سبحانه ويذكِّرهم به، ويقومَ بإرشادِ مَن في الطريق إلى آداب الطريق... فكذلك من العبادة توقُّع كلِّ شيء من الله تعالى، والانتظارُ في الأمور التي تتطلب الانتظار مع الصبر على تباطؤِ الزمان بشكل يستنفد الصبر ويسلب العقل.. فالمرء قد يحظى بالتوفيق في أولِ حَملة أو حركة أو قيام وشبوب، فيجدُ ما يبتغي؛ لكن قد يجول ويصول كجواد أصيل، فلا يحصل على شيء في الظاهر، لكنه يفوز في النهاية بصبره وإقدامه ونيته.

وأحيانا تَقطع الحوادثُ الدنيوية والدنيويون الطريقَ أمام الإنسان، وأحيانا تشتدُّ وطْأَةُ الأحداث المنهمرة فلا يُطاق التصدي لها... فتتعاقب السنوات وتمضى وكأنها "محرَّمٌ" كلها، وتؤدي الطرق إلى "كربلاء" فتنسدُّ وتقف هناك!. لكن القلوب التي تتلقى أوامر الحق تعالى -رغم ذلك كله- لا تهتز ولا تترنح ولا تتذبذب حيالها؛ فيرون كل حادثة "معاملةً" مرتبطة بإرادة الله المتعالية، ويحتسبون المصائبَ امتحانا، ويستقبلون الامتحانات في توكل وتسليم، ويُعلِّمون قُطَّاعَ الطرق -الذين لا يرعون ذمة ولا تقاليد- دروساً في الإنسانية، ويقوّمون كل حركاتهم وتصرفاتهم في إطار دقة الامتثال للأوامر الآتية من العوالم الماورائية؛ فعينٌ منهم تَرْقُب سلوكياتِ أنفسهم، وعينٌ أخرى ترقُبُ انفراجَ ذلك الباب المتعالي، ويندفعون -بلا تشتيت لهمتهم- نحو هدفهم الذي هو أسمى الأهداف -جَعَلَنا اللهُ فداءً لذلك الهدف السامي الذي هو مرضاته تعالى-، ويتحرزون من التلوث بالتوجه نحو الأغيار ولو بخيالهم.

إن رجلا بهذه الأوصاف من أهل الوفاء والصدق، له همٌّ وحيد بدرجة العشق، هو أن يجد اللهَ كلُّ أحدٍ، ويتوجهَ إليه، ويتخلصَ بالعبودية لله وحده من شتى العبوديات... إنه يطوفُ في الدروب والأسواق، لا يهدأ ولا يسكن... صوتُه ونَفَسه ترجمانٌ لقلبه، فينادي -نداءً لا ينقطع- بأسلوب مفتوح لقبولِ كلِّ وجدان لم يفسد، فيئن وينادي: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:٥٩) هذا التوجع هو شيء من نواح النبي نوحٍ عليه السلام... ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الأعراف:٦٥) وهذا شيء من صراخ النبي هود عليه السلام... ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:١٠٧-١٠٩) وهذه التعبيرات الصادقة الخالصة هو البيان المشترك لدعوة أولئك الأنبياء أجمعين... يقول ذلك ويُسمِع خفقاتِ قلبه أبداً، أو يُهرَع لعون الذين يهتفون بتلك النغمات فينادي: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ ۝ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۝ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(يس:٢٠-٢٥) فيأمر اللهُ تعالى أن يدخل الجنة (وفُسّر بأنه قتل فدخل الجنة شهيداً) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس:٢٠-٢٧) فبهذه الهمهمة والتمتمة يُعلِن عن موقفه تجاه الله وتجاه قومه، (وتَرْوِي كُتُبُ المناقب أن هذه الصرخات القلبية الموازية لأنفاس ملائكة السماء هي للبطل الشجاع حبيب النجار).

وهناك رجل مؤمنٌ من آلِ فرعون مجهولُ الاسم. وهذا البطل الهزبرُ

الذي يخفق فؤادي كلما سمعتُ صوته الهادر، يبدأ كلامه بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾(غافر:٢٨) ويعني بـ﴿رَجُلاً﴾ موسى عليه السلام.. فيدلي بنصائحَ وبياناتٍ بليغة ومؤثرة في الأحاسيس والأفكار الإنسانية كنفخ الصُور، فتملأ الصدورَ خشيةً وتُرعِش وتُرعِد أرواحاً، وتَشرح وتريح أرواحاً، ثم يصرخ -في جُرأة- بما ينبغي أن يقال، ويختمُ كلامه بقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(غافر:٤٣-٤٤).

لقد ظل رجال العزم والإرادة هؤلاء صامدين وثابتين حيال تلك الجموع التي تردَّت وهبطت إلى منتهى الطيش والصلف والهوان والغرور والأنانية والحقد والكره والغضب... تلك الجموع التي اعتَبرت مروءتَهم وشجاعتهم هذه ضلالةً وسفاهة، وخوَّفتهم بالطرد والتهجير من مساكنهم وديارهم، أو هدَّدت أتباعهم بقطع أرجلهم وأيديهم، أو استخفت بهم واحتقرتهم، أو أساءت الظن بمواقفهم النبوية بأن بعض آلهتم اعتراهم بسوء، أو أوعدت هؤلاء المرشدين بالرجم، أو هوَّنت من شأنهم دائماً بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠).

ولكن هؤلاء ردوا عليهم في صوت جهوري: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧١) هذه الوقفة، وهذا الصوت الهادر، لنبي الطوفان عليه السلام... ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(الأعراف:٨٩) وهذا التحدي من خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام... ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(هود:٥٤-٥٦) وهذه البيانات تُظهر مواقف النبي هود عليه السلام... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨) وهذا تحذير بليغ من النبي شعيب عليه السلام. أما ردهم على قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠)، فكان: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(إبراهيم:١١-١٢) وهذه وقفة من وقفات أولى العزم للأنبياء نوح وهود وصالح وغيرهم من الأنبياء العظام عليهم السلام... فحينما وصل الأمر إلى حد لا يطاق، توجهوا إلى الله تعالى بكل كيانهم، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الممتحنة:٤-٥) وهذه باقةُ رسائلَ حول التوكل من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى السائرين في الطريق.

والملحوظ أن أبطالَ القلوبِ هؤلاء، الذين تمتعو بإرادة صلبةٍ ومواقفَ حكيمةٍ، حافَظوا جميعاً على مقصودٍ بعينه وساروا على خط واحد والتزموا قِيَما بعينها. فإنَّ ما كان ينعكس على أحاسيسهم وأفكارهم وسلوكياتهم هي أمور بعينها، ووحدةُ القضية والدعوة تَظهر جليا في

رسالاتهم وتبليغاتهم. وإن تمثيلهم للمهمةِ نفسِها لَجَلِيٌّ وواضح مهما اختلفت بلادهم وأزمانهم. وإن أبرز خصائصهم أنهم في كل أفعالهم لم يطلبوا إلا مرضاة الله تعالى، ولم يستعينوا في جهادهم إلا بقدرته وعنايته، ولم يلتجئوا إلا إلى حفظه وكلاءته، ولم يتحركوا إلا باسمه.

أما الوظيفة الأصلية لهؤلاء القُدسِيّين، فهي إنقاذ البشر من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان، وتحفيزُ الأرواح لتصغي القلوبُ إلى الحق تعالى، وكشفُ ما أمام ستار الأشياء وما وراءها وإراءتُها على حقيقتها حتى تزول الشبهات والشكوك في الأذهان، ونشرُ الأنوار على وجه الوجود ليُقرَأ ككتابٍ وليُطَّلَع عليه كمَشهر ومَعرض وليفسَّر كلوحة فنية بارعة ثم يترجمَ حسب أفق إدراك العصر، وجَعْلُ هذه المسيرة الفانية مَدْرَجاً إلى العوالم الباقية وجِسراً إليها ومزرعة لها وسُوقا لشرائها.

ففي معرض البيان لطَرَف من هذه الأمور يقول الله تعالى في القرآن لسيد السادات ﷺ: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١) ويُعرِّفنا بإطار من الأُطُر لرسالة النبوة ودورها. وليس سيدنا ﷺ وحيداً في هذا الأمر؛ فهو وظيفة كل الأنبياء من لدن أبينا آدم إلى سيدنا موسى، ومنه إلى سيدنا عيسى عليهم السلام. وانظر كيف يَربط القرآنُ الكريم الأمرَ في السورة نفسها بالنبي موسى عليه السلام أيضاً قائلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾(إبراهيم:٥).

ومع أن ممثلي هذه الرسالة السامية -التي تتطلب شعوراً بالغا بالمسؤولية وإرادةً مكينة وشخصيةً متينة-... مع أن هؤلاء بشر من أمثالنا... لكنهم بشر يختلفون ويتميزون عن غيرهم في قوة عزمهم وأيمانهم وحِدّة

استقامتهم، وعلو أمانتهم، وغاية شعورهم بوظيفتهم، وشدة حرصهم على رضا الحق تعالى، وثبات مَواقفهم وإرادَتِهم حيال المعاصي أبداً، وولعهم بدعوة الناس إلى الصراط المستقيم وكأنها غريزة فيهم؛ فلا يقر قرارهم ولا يعرفون سكونا، إلا "الإرشاد"... "الإرشاد"! فيؤدون وظائفهم في اشتياق غامر، لا يعرفون كللاً أو مللاً، وإذ يوفون بوظائفهم بحساسية مرهفة، لا يتدخلون في شأن الربوبية، فلا ينشغلون بحساب النتائج قط، ولا يرجون إلا عناية الرب جل وعلا. يُرجعون الهداية والضلالة إلى الله تعالى -مع قبولِ وجود أثرٍ للإرادة في مستوى "الشرط العادي"-، ويعترفون برجوع الأمر إليه كله، ويخضعون لحكمه وقضائه بألف نَفْس، ولا بنَفْس واحدة، وكما يرعون الأوامر الشرعية والتنزيلية أدقَّ رعايةٍ، كذلك يتحرون الحِفاظ على الأوامر التكوينية بأعظم العناية. وإن لهم لوقفات وطيدة ومكينة حيال القرآن والكائنات، وأمام مخاطَبِيهم وربِّهم... وهذه هي وقفة "أولي العزم" والمصطفَيْنَ.

وإن همم هؤلاء المصطفَين لعالية علواً بحيث لا هم يكتفون بما يحرِزون، ولا ييأسون أو يرتبكون إذا لم يحصلوا على ما يريدون. يعرفون أن التوفيق من الله، ويُرجعون إخفاقاتهم إلى أنفسهم. يقفون منتصبين في ثبات ويأبون أن ينهاروا. فإن حصلتْ لهم رجَّة من حيث لا يشعرون، استعادوا الثبات من فورهم ثم مضوا لسبيلهم. لا يفرحون بما ربحوا من حظوظ الدنيا فلا ينشدِهون بها، ولا يغتمون أو يتكدرون لفرصة أضاعوها.. فيعرفون أن الحظوظ كلها من الحق سبحانه، فتصيبُهم رعشة ورجفة خشيةَ أن يتعرضوا للابتلاء من وجه، ومن وجهة أخرى تَرى ظهورَهم منحنية خشوعا ومهابة منه تعالى، لعلمهم أن كل الألطاف والإحسانات منه

تعالى... فللوقفة السليمة السديدة لهؤلاء المصطفَين الأخيار، لن يتخلى الله عنهم، بل يؤيدهم بنصره في الدنيا ويشرفهم بوراثة الأرض، ويورثهم "جنة الفردوس" في الآخرة. واقرأ إن شئت شاهداً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) والمعنى أن الأرض كلها ستصطبغ بصبغتهم... ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(المؤمنون:١٠-١١)

إن المقومات الداخلية لهذه الهامات السامقة وأطرَ رسالاتهم تستدعي مقالة أخرى مسهبة ومستقلة تُشْبعها شرحاً وتفصيلاً، وقد نعود إليها.

ما يتجلى لنا في وجه النبوة

كما شاء الله تعالى أن تكون الكائنات والأشياء مَعلما من معالم معرفتِه والعلمِ به، كذلك أراد أن يُعَلِّم عباده بلسان الوحي: مطالعةَ الأوامر التكوينية والتنزيلية متداخلةً ومتمازجةً، وتعزيزَ المعاني المنسابة من العين إلى القلب بالنفحات القادمة عن طريق الأُذُن والتي تغشى الروح، وإظهارَ مفهوم الألوهية باعتبار الذات والصفات والأسماء "من حيث هو هو"، وبالتالي إشعارَ العباد مسؤولياتِهم حيال ذلك، وكيفيةَ نهوضهم بهذه المسؤوليات والتكاليف، مع ملاحظة آدابِ وأركانِ الطريق التي يمشون أو سيمشون فيها، وما يترتب على الغاية التي سيَبلُغونها. وكما أن معرفة أمور الغيب المطلقِ معرفةً سليمة وصحيحةً تقتضي الوحيَ، كذلك الوحيُ يقتضي النبوةَ بالضرورة. فبناءً على هذه الضرورة، شَرّفَ الله تعالى كل مرحلة زمنية، و-باعتبار بعض المراحل الزمنية- كل قارة، بوجود نبي من الأنبياء. وبعبارة بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن القدرة الأزلية التي لم تَدَعِ النمل بلا أمير، ولا النحلَ بلا يعسوب، لم تَدَعِ البشريةَ في أي زمان بلا نبي".

خلق الله تعالى هذه الكائنات بعلمه وإرادته، وألبسها لباسَ الوجود الخارجي، وجَهَّزَ كلَّ مخلوقٍ -حي أو ميت، كثيفٍ أو لطيفٍ، أرضيٍّ أو سماوي- بأنواع الحِكَم والمصالح ورَبَطَه بغايات معينة ووجَّهه إلى

أهداف معينة. وإنه تعالى من جانب آخر وفي طولِ موجةِ تجلٍّ آخرَ لكي يُعْلِم عن ذاته بذاته، ولينبئ -في هذا الصدد- كلَّ أحد بوجوده، وليُشْعِر ذوي الشعور من الموجودات خاصة بغاية خلقهم، ولأي شيء ولأي مكان هم مرشحَّون، وما هي مسؤولياتهم وتكاليفهم... لهذا كله، أرسَل إلى الأقوام رسلاً مجهَّزين بتجهيزات خاصة لبيان أسرار الألوهية ونظام العبودية... وكما أراد أن يُعْلِمنا بوجوده بواسطة ألوانِ مخلوقاته ورقوشها وأدائها وتناغمها ومعناها ومحتواها، فكذلك أراد بواسطة هؤلاء المختارين المصطفَين أن يُشعِر أرواحَنا في بيانه التنزيلي من وراء سِتار التنزلات، بأسرار الربوبية وغايةِ الخلق، ونتيجةِ الفطرة، ومَوقعِ الإنسان على وجه الأرض، وأحوال المعاد... وذلك حسب مدارك البشر، ودرجةِ حسهم وشعورهم، مع رعاية التناسب المحكم بين ذاته وصفاته وأسمائه.

إن الحق تعالى -وله حِكَم كثيرة في كل شأن، ودائرةُ ربوبيته تحتوي على حِكَم ومصالحَ لا تحصى- لم يخاطِب الجميعَ مباشرةً في أوامره التنزيلية والتشريعية، ولم يكلِّمهم كلَّهم عيانا بيانا، بل اصطفى -حصراً- لمثل هذا الأمر المهمّ غايةَ الأهمية والخاصّ جدَّ الخصوصية بعضَ ذوي السجايا الممتازةِ المجهزين بجهاز خاص والعائشين في مقام القلب والروح، فكلَّمهم. وبواسطة ذوي الاستعدادات السامقة هؤلاء، والفطراتِ الباهرة، والسجايا السامية، بَلّغَ وجدانَ البشرية غايةَ الخلق، وحكمةَ الوجود، ومعنَى ومحتوَى الدنيا وما فيها، وكنهَ "العوالم الأخروية"، وسبلَ الجنة، التي تُوصِل الإنسانَ إلى الأبدية في ذلك العالم. وإذ نبههم إلى ذلك؛ فأحيانا ارتعشت القلوب وارتعدت منها، وأحيانا استشرفت العالمَ الآخر وفاضت شوقا إليه. وأعلمهم الحق أيضا أن الدنيا مِن مشارقها إلى

مغاربها مَشْهَرٌ برّاقٌ لعرض تجليات جماله، وأنها موضعُ حصادِ الزروع لحساب الأبديات... فبكل ذلك أنقَذَ الإنسانَ من وحشة الوحدة، وغيابِ الغاية، والانفلاتِ من الوظيفة، وضياعِ الهدف، وعَلَّمَه بأن هذه الدنيا حجرةُ انتظار "للآخرة"، وفرَّح الأرواحَ الملائمة والمستعدة فبشَّرهم بأمرٍ فوقَ الوجود واستشعارِ الوجود، وهو الأبدية ورؤية جماله تعالى.

ولقد حقق الله سبحانه هذه الغايات والأهدافَ السامية جميعاً بهؤلاء الأخيار المصطفَين الذين سماهم "الأنبياء"، وجعلَهم ألسِنةَ الوجود والأشياء، ومترجميه ومفسريه، وهُداةً راشدين للوصول إلى العبادة والاستقامة والإخلاص والدار الآخرة. فهؤلاء الفطرات الساميةُ، ساحوا في ساحات وظائفهم، وأعلنوا الحق، وأسمعوا تبليغاته للبشر، فأرشدوا الناس الذين في مجال مسؤولياتهم.

إن الأنبياء أجمعين -مع تفاوت درجاتهم وتفاضُلهم فيما بينهم- كلٌّ منهم هو مثال الفطرة الطاهرة، وأنموذجُ الأخلاق العالية، وصرحُ العفة والطهارة، وبَطَل الأمانة، ومثال الوفاء والصدق. فكل منهم إنسانٌ قدوةٌ يشارُ إليه بالبنان في كل عصر وزمان، بشخصيته السامقة، وسلوكه الجاد، وأحواله الموحية بالثقة، واستقامته التي لا تحيد، وصدقِه الثابت في كل الأحوال، ووفائه الذي يعدل وفاء الملائكة، وصبره الراسخ كالجبال، وشعوره العميق كلَّ العمق بالعبودية. هؤلاء هم بمثابة الناطقين باسم عالَم الربوبية، والمرايا العاكسةِ للأوامر والأسرار الربانية في ستار التنزلات الإلهية...

وذلك بصورهم ومظاهرهم المتكاملة من غير أدنى نقص، وبِسِيَرهم المذكّرة بالحق تعالى لكل ذي عين، وبمجرى حياتهم المنفتحةِ للخوارق دائماً، وبجاهزياتهم واستعداداتهم الراقية القادرة على حل المعضلات التي

تُواجههم بحَملة واحدة، سواء الفردية منها أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، وبتأثيرهم الخارق على محيطهم، وببيانهم الفصيح الباهر، وبمقاييسهم المتناسبة والمتوازنة فيما بينها حول حقائق الإنسان والكائنات والألوهية، وبما يتمتعون به من الحاهزية الراقية التي تفوق المكتسبات البشرية والتي تؤهلهم لإشباع جميع اللطائف الإنسانية؛ القلبيةِ والروحية والذهنية والفكرية والحسية، وبسلوكياتهم المبصرة والمتوازنة في رعاية المعادلة العامة، والنابعة عن فهمهم الراسخ للانسجام الداخلي والخارجي لعموم الكائنات والوجود.

نعم، إنَّ كل نبي هو مرشدٌ أمينٌ في الطرق الموفية بالإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، وناصحٌ أمين لتحفيز القلوب إلى المحاسن الإلهية، ومرشدٌ كاملٌ في النفوذ إلى أرواح المخاطَبين، وذو خبرة ومهارة عالية في نحت أفكار وأحاسيسِ الذين يتناولهم وتشكيلِها وصَقْلِها، ثم ربطِها بالغاية والهدف من خلقهم، وهو مربٍّ كاملٌ في انتزاع الخصال السيئة والعادات الفاسدة والطباع الملوثة، وإحلالِ القيم الإنسانية الرفيعة محلها... وهو مُخَلِّصٌ عَزومٌ غايةَ العزمِ وصَدوقٌ غايةَ الصدق، قويُّ الإيمان، متين الثقة بالله، مطمئن إلى حقانية الرسالة التي يبلِّغها، يتكلم دائما مطمئناً من غير تذبذب وترددٍ، لا يصيبه وجل ولا يبالي حيال أعظم الدواهي، ولكنه -في الوقت نفسه- يتحرك بدراية وفطنة. إنه مُخلِّص عظيم لا يخدع ولا يُضِلَّ من تبعه قط، ولا يندم من تبعه على اتِّباعه البتة. ذلك بأن الأنبياء هم أغنى الأمناء على أسلم خزائن العلوم اللاهوتية النقية الندية التي تفوق أشواطا وأشواطاً ما نلناه، أو سنناله، عن طريق مشاعرنا وفكرنا ومنطقنا ومحاكمتنا العقلية، وآمَنُ المرشدين في طريق الإيمان والمعرفة والمحبة

والعشق والشوق والذوق الروحاني، وأَوْثَقُ الهُداة الموفين الْمُبلغِين إلى الحق تعالى. فالمتيقّظون للحق تعالى إنما تيقظوا بندائهم، والمترنّمون بالمعرفة إنما انحلت عقد ألسنتهم بسقيا كوثرهم، والمتحرون عن رضا الحق تعالى إنما وجدوا ما يتحرون عنه في جوهم وفضائهم، والتواقون إلى أسرار كتاب الكائنات إنما قرؤوا طلاسم هذا الكتاب قراءة صحيحة بأبجدياتهم ومعطياتهم.

الأنبياء هم أرباب السمو والارتقاء المادي والمعنوي، ورواد طريقِ الكمالات العقلية والروحية، وأساتذة كل النُّظم والترتيبات: الدينيةِ، وكذا الدنيوية، ومهندسوها. فبفضلهم ارتقى الإنسانُ من مستوى الحياة البيولوجية، فبلَغَ مرتبةَ "أَحْسَن تَقْوِيم" التي تُعَدُّ تعبيرا آخر عن "الإنسان الحقيقي"، وبواسطتهم اكتَشَف ذاتَه، وفَهِم موقعَه بين الموجودات، وبالاقتداء بهم أَحسَّ بالعمق الموجود في مستوى حياة ذوي الهمم العالية، من أمثال الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وتذَوَّق طعمَها... وأيضاً، بتعليمهم وإرشادهم وإشعارهم رأى الإنسانُ الوجهَ الحقيقيَّ للدنيا، فاعتبرها مختبراً، أو دارَ كيمياء، أو صيدليةً، أو قصرا منيفا، أو مَشْهَرا عظيما. وبتعبير الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي إن الله تعالى إذْ أمر الناسَ باتّباع الأنبياء، أراد أن يشرّفهم بالتعرف على أعماقهم المعنوية لتنفسح طريقُ الاستفادة من هذا المصدر الفياض... وزد عليه، أنه أَطْلَعَ الإنسانَ على وسائل الارتقاء المادي في المستويات المختلفة لتجليات المعجزات التي هي أمارات صدق الأنبياء وعلاماتُه، أو -في الأقل- أَرسَلَ إشعاراتٍ بشأن هذا الموضوع، حَرَّكَ بها أنظمةَ الاستقبال في الأرواح الحساسة والمستطلِعةِ، وفَتَحَ أبوابَ التقدم التكنولوجي في

خيالها، وهيأ لها الأرضية لإثارة العصف الذهني فيما بينها.

نعم، كلُّ معجزة هي إشارة وإشعارٌ وتذكيرٌ وتداعٍ باعتبار الأوامر التكوينية، ودعوةٌ إلى تفحُّصِ خصائصِ هؤلاء المصطفَين في مختلِف المجالات.. كالسفينة المعجزة المصنوعة في الترسانة النبوية لنوح عليه السلام... وقميصِ إبراهيم عليه السلام المَخيط في مَعملِ "حسبي الله"، المقاوِمِ للنار، والمذكّرِ "بالأمْيَنت"[1] المتحمّل لأعلى درجات الحرارة، بل بما هو أشد مقاومة منه... وساعةِ يوسف عليه السلام المجهولةِ الكُنهِ التي منَّ بها الله عليه بشكل معجز جراءَ بحثه عن جدول الأوقات والذي احتاج إليه إلى درجة قريبة من حد الاضطرار... وعصا موسى عليه السلام التي تُذَكّرُ بمضخات الماء والآبارِ الإرتوازية... وتليينِ الحديد لداود عليه السلام بتذويبه وتشكيله وتفريغه في القوالب الذي يصوّر في الأذهان صناعةَ الصلب والحديد... وجَلْبِ سليمان عليه السلام لعرش بلقيس برسمه وشكله وصورته، وربما بكل زينته المحيطة به، هذا الذي يجلب معه خيال التلفزيون والإنترنت وما هو أبعد منهما، وأيضاً، قطْعُ هذا النبي الجليل مسافة شهرين في يوم واحد المحفّز لتكنولوجيا الطائرات الحديثة، وكذلك إجراءاته عليه السلام في عالمِ ما وراءَ المادة والفيرياء بتسخير الجن والعفاريت والشياطين له، التي تشير إلى المداخلة في العوالم الميتافيزيقية والتي تضع الحدود النهائية للباحثين في حقل عالم الأرواح. وكذلك تَحاوُره بـ"منطق الحيوانات" الدال على فن ألسنة الطير والنمل والحيوانات الأخرى وتعلُّم شفرات التفاهم بينها، بل حثه على ذلك... ومعجزات عيسى عليه السلام التي تتعدى خيال الإنسان إلى مسافات أبعد مما تَوصَّل إليه الطب الحديث وعلمُ الجينات في يومنا هذا بإضفاء الحياة على ما ليس له روح، وإبرائِه للأكمه والأبرص، وإحيائه

[1] حرير صخري تصنع منه الأردية لعمال إطفاء الحريق.

الأموات، بإذن الله تعالى... وأخيرا مئات المعجزات لمفخرة الإنسانية ﷺ التي تَعْدِل جميع تلك المعجزات.

النبي، هو قابليةٌ واستعدادٌ وجاهزيةٌ متعاليةٌ ربانيةٌ، لأخذِ وفهمِ العلم الذي هو من جملة العلم الضروري باعتبار وروده من الله تعالى، وذلك باستلامه وفهمه كما هو، ثم نَقْلِه إلى الآخرين من غير أن يَخلط به أدنى شيء يخالف جوهرَه ولبَّه وذاتَه. فكما أن عملية الحياة والتكاثر بالسَوْق الإلهي[1] في الإنسان العادي والموجودات الأخرى مهمة وضرورية، -وهذا تشبيه من الأدنى- فكذلك تَجري وظائفُ ومسؤولياتُ الأرواح التي حظيت بالنبوة، في إطارٍ طبيعي أشبهَ بتلك المنوَّه عنها. (إضافةً إلى أهميةِ وقيمة مشاهدتهم ومراقبتهم، وقيامهم بالتشخيص والتثبيت، واجتهادهم حسب الحاجة، وذلك بوجدانهم الذي هو عبارة عن مزيج من اللطيفة الربانية والحس والشعور والإرادة). فإنهم يتلقَّوْن الأوامر من الحق تعالى بجهازهم الداخلي كطرف من طبيعتهم، ويبلِّغونها كضرورة لفطرتهم... يبلِّغونها ولا يفتُرون، ولا يميلون إلى راحة، بل يتحركون دائماً كما أُمِروا. وإذ يتحركون، لا يقعون في انتظارِ مأمولٍ، فكأنهم يلبون أية حاجة من حاجاتهم الفطرية.

يفسر الجمهور الأعظم الخدمةَ والفعالية التي يوفيها الأنبياءُ العظامُ والمرتبطةَ بالاصطفاء الإلهي والتوظيف الرباني والمقترنَةَ بجهازهم الداخلي، بأنها من نوع الأفعال الضرورية لوجدانهم الطاهر. فالنبوة بناءً على هذا التفسير عطيةٌ وموهبةٌ إلهيةٌ منحها الله تعالى للأرواح التي هي كالرشحة في استعدادها لعرضها ما ينعكس عليها من غير خلل وعطل، كما وَهَب لهم الفطرةَ السليمة والطبيعةَ المستقيمةَ، إلى جانب "الوجدان"

[1] السَّوق الإلهي: الدفع الإلهي بالدوافع المغروزة في كنه الحياة والموجودات. (المترجم)

المتوجهِ بكل ركن من أركانه -باعتبار الجهاز الداخلي- إلى غاية وجوده -ويمكن أن نسميه الوجدان المنفتح تمام الانفتاح-... والنبيُّ ممثِّلٌ خاص لهذه الموهبة والعطية المقدسة.

ولذلك قيل إن النبوة هي فهمُ ما لا يُفهم بالإدراك البشري والعلمُ به، ونقلُه إلى المخاطَبين الآخرين من غير خلل أو انكسار. وعُدَّ النبيُّ -من هذه الوجهة- نقطةَ اتحاد المبدإ والمنتهى. فالله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:٢٦٩).. ومعناه أنه تعالى رفع الأنبياءَ إلى درجاتٍ ومناصبَ رفيعة، ثم أشعر وجدانَ الآخرين "بأسرار الألوهية" و"أسرار الربوبية" بواسطة هؤلاء المصطفَين، فنوّر عقولهم.

وإنه إكرام من الله تعالى يَعدل نعمةَ خَلْقِنا وحظوتِنا بالوجود -بل هو فوق تلك- مَنَّ به علينا -نحن الذين يمكن أن نتعثر فتنقطع بنا السبل، أو نحتار فنضيع- أن أرسَلَ إلى الإنسانية هذه الشخصياتِ الساميةَ المصونةَ المعصومة. نَعَمْ، الوجودُ نعمة، وإيضاحُ الكائنات والحوادثِ كلها -بعد الوجود- وتفسيرُها ومن ثم إظهارُ أعماقِها الأخروية والإلهية بواسطة الرسل، إنما هو لطفٌ وأكرامٌ آخر. وإن الطبيعة غير الملوَّثة لكل إنسان نقيٍ، وكلَّ وجدان مبصرٍ، يمكن أن يَبْلُغ -ولو بدرجات مختلفة- بالاستفادة من هذه الإيضاحات والتفاسير أعلى مواقع يغبطها الروحانيون، وقد بَلَغها مَن بَلَغَ.... وعلى الضد، فالذين تخبطوا في كماشة الكبر والظلم والانحراف والتقليد الأعمى كما أنهم لم يحسوا ولم يُقدّروا حظوة الوجود، كذلك فَاتَهُمْ إدراكُ هذه النعمة الثانية، و-بإرادتهم في مستوى الشرط العادي- تعثروا بعماهم وصَمَمِهم وبَكَمِهم، قائلين: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(الفرقان:٧)، فعصوا وتمردوا وأظلمت آفاقهم تماماً.

إن إرسال الأنبياء وتعيين المرسلين لهو من الأمور العالية الخاصة بالله تعالى. وبناءً على ذلك فكل عمل وإجراء له علاقة به تعالى، لابد أن يناط بعقليةِ إبراهيم حقي القائل (ترجمته):

"في كل شي له حكمة،

فلن يفعل الله عبثا"،

ثم يتحرى عما ينطوي عليه من الحِكَم بقدر أفق إدراك العقل.

وقد نستنبط حِكَماً ومصالح مهمة من إرسال الأنبياء مِن بشرٍ مثلنا، وإحساسِهم بما نحس به في أبعادهم الحياتية، وتلذُّذِهم بما يطيب لنا أيضاً، وتذوُّقِهم عينَ ما يؤلمنا وما يلذُّ لنا، وإحساسِهم في أرواحهم بمثل احتياجاتنا وبما نَعدُّه ضرورة، وتحمُّلِهم المسؤولياتِ والتكاليفَ من أمثال ما تُحَمَّل على أممهم ومخاطبيهم... فنقول: إنما حصل ذلك ليسهُل تقليدُهم، بل الأحرى اتِّباعُهم... وباختصار: ليمثلوا الجانب الأرضي لرسائل الحق تعالى ضمن سماويتها. لكننا نقول معها: "اللهُ وحده عليم ببواطن الأمور"، ونجدد استسلامنا لحقيقةِ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(الأنعام:١٤٩)، ونعتبر أنَّ أعظم الحكمة هو السكوت أمام "العليم الحكيم"، ونرجح رَبْط ألسنتِنا بقلوبنا والاستغراقَ في مراقبة التمكين.[1]

لكن ينبغي ألا يغيب عنا -مع كل هذه الخصوصيات لسادتنا الأنبياء والمرسلين الكرام- أنهم بشر من أمثالنا. نعم، إنهم بشر مثلُنا... بشرٌ، أهمُّ خصالهم الإيمانُ والعبوديةُ، ووظيفتُهم التي اصطفاهم الله من أجلها هي تبليغ الإيمان والعبادةِ للآخرين، ورَفْعُ العوائق بينهم وبين الحق تعالى. وليس من وظائفهم تحويل الجبال والأحجار إلى ذهب، أو تبديلُ

[1] المقصود من التمكين: الحذر والاحتياط والتثبت (المترجم)

مجرى الأنهار، أو تحويلُ الصحارى القاحلة إلى جنان خضراء، أو إنزالُ الطعام من السماء... صحيح أن القرآن بعينه يورِد كثيراً من أمثال هذه المعجزات الكونية الحاصلة بيد هؤلاء الأنبياء ويربطها بالنبوة؛ لكن كل هذه المعجزات؛ هي من جهةٍ ألطافٌ ربانية خاصةٌ وأجرةٌ عاجلة لهؤلاء الكمَّل مقابلَ عبوديتهم الخالصة وشعورِهم بالمسؤولية ومَواقفِهم بين يدي الحق تعالى... ومن جانب آخر هي توجهات خاصة والتفاتات ربانية حصلت بالمشيئة والإرادة الإلهية لبعث الاطمئنان في نفوس أممهم.

إن تحويل الحجر والتراب إلى ذهب وتبر، والفحم إلى ألماس على يد الأنبياء، وإحياءَ الموتى بأنفاسهم، مقترناً بدعوة النبوة، هو تجلٍّ للألطاف الإلهية في طريق القبول بنبوتهم، ونسيمُ إحسانٍ لسَوق آمالهم إلى اليقين. هذا، وليست هذه المعجزات بأعجب من أن يَجعل الحقُّ تعالى -بعناية خاصةٍ منه- الأرواحَ المنكِرة يشعرون في وجدانهم بحقيقة الإيمان، ويُليّنَ الطبائع المنغلقة على الكفر، ويجعلَهم يَشعرون بالله، ويَنفخَ الحياةَ في تلك القلوب الميتة... بعبارة أخرى: هذه المعجزات التي حصلت بخلق الله تعالى هي وقائعُ ثانويةٌ وتبعية لا تُعدُّ في محور الفَلَك الأصلي للنبوة، بل هي تأييدٌ وتسليةٌ للأنبياء، ووسيلةُ إذعانٍ وتسليمٍ للمخاطَبين.

وأرى من المفيد تكرار التذكير بأن الوظائف الأصلية للأنبياء هي: تصفية الإنسان من الأخلاق الذميمة والخصال الفاسدة التي تُعيق وصولَه إلى الله تعالى وتؤدي إلى ابتعاده عنه؛ مثل الكبر والظلم والانحراف وتقليدِ الآباء والخضوعِ لمؤثرات النفس والجسمانية، وتحفيزُ الأخلاق الحسنة والخصالِ الحميدة في البشر؛ مثل التواضع والوقوف عند الحد، والتفكيرِ المستقيم، والتزامِ الحق، والتوجهِ إلى الحياة القلبية والروحية،

وتذكيرُهم بمواقعهم ومسؤولياتهم، وتعليمُهم التوقيرَ في علاقتهم مع الخالق والشفقةَ بالمخلوقات، ولفتُ أنظار قلوبهم إلى محاسن اللانهاية، لأنهم خُلقوا للأبد ولن يُروِي غليلَهم شيءٌ إلا الأبدية، وحجزُهم عن الزلل بتلقينهم التمييزَ بين الأمور التي تهم البشرية جمعاء، مثل الصواب والغلط، والمفيد والمضر، والحَسَن والقبيح، والحق والباطل، والباقي والفاني، وتفهيمُهم إياها بصورةٍ تَفْقَهُها العقول المتحررة عن الأحكام المسبقة ويَقْبَلُها الوجدان السليم، وتثبيتُ الهداية والضلالة ووضعُهما في الأطر التي وضعها الحق تعالى، وإشعارُ الأرواح بالمحاسن اللانهائية للوصول إلى الحق تعالى وبالقبائح الرهيبة للانحراف والتيه، وتعليمُهم عقيدة الألوهية والربوبية كما يريدها الله تعالى وليس كما يصوّره الهوى والرَّغَبَات النفسانية، وإرشادُهم إلى ربط كل شيء برضا الحق تعالى، وهدايتُهم إلى الطرق الموصلة إلى ذلك الأفق، وإخبارُهم بعقاب المنكِرين وبثواب جنان النعيم للمؤمنين في الأخرى... وأمثالُها من الوظائف إجمالاً. وإنَّ توقُّع شيء من الأنبياء خارج وظائفهم جهلٌ بالنبوة واستهجانٌ صريح بالأنبياء. وجوابُ القرآن واضح عن كلِّ طلبٍ توقُّع خارجَ وظائفهم: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾(الأنعام:٥٠).

نعم، إن الأنبياء إنما يتبعون وحي الله تعالى ويَسْعَون بغاية همتهم إلى الهتاف به وتفسيرِه وتمثُّلِه. فما يعلمونه ويقولونه ويعملونه وكل ما يريدون تنفيذه وتحقيقَه هو عبارة عن تبليغٍ وتمثُّلِ الرسالة التي حمَّلهم الله العليم الحكيم إياها بأسلوب خاص. وبعبارة أخرى، هم حيالَ الرسالة الإلهية بمثابة موظفِ توزيعٍ وتقسيمٍ وتبليغٍ على مَورد الوحي الذي هو "المنهل العذب

المورود". ولئن فَسَّروا أو اجتهدوا في مواضعَ وفقاً لمُحْكَمات الوحي، فقد سعوا إلى التعبير عن كل شيء حسب منهج العلم الإلهي المحيط ودائرته، وراعَوا المرادَ الإلهي والمرضياتِ الإلهية في كل حركاتهم.

الأنبياء يواصلون حياتهم في ظلال الوحي، ولا يبتغون في أي من أعمالهم إلا رضا الحق تعالى، ويسيرون في السبيل التي أرشد إليها الهادي سبحانه، ويفوّضون نتائج حركاتهم وفعالياتهم كلها إلى الله ﷻ، ويؤجلون الحصول على ثمار سعيهم وهمتهم إلى آخر محطة في الآخرة. الأنبياء ومن اتبعوهم بإخلاص، لا ينجرفون بحب الدنيا والرغبةِ في المناصب البتة، ويَنوطون كل حركاتهم وتصرفاتهم بمشاعر التقوى، ويَعُدُّون بصيرة الخضوع للوحي عينَ الهداية، ويسيرون في هذا الصراط السوي الوضاء بكامل مَلَكاتهم العقلية والروحية والقلبية والحسية، ويرون السير في هذا السبيل ضماناً للخلاص والتخليص، ويربطون حياتهم كلها بهذه الرؤية وهذا الفهم.

وإن عقل الإنسان ومنطقه ومحاكمته -ويمكن اعتبار كل ذلك شيئاً واحداً- كلما تقبَّل النبوةَ وما يرتجى منها، واستطاع أن يستفيد من هذا النبع الفياض استفادة تامة، فإنه من جانبٍ، سَلَكَ -وسيسلك- الطريقَ الموفي إلى الثغر الحدودي لمساحة ذاته، ومن جانب آخر نجا -وسينجو- من أن يكون وسيلة لإضلال الآخرين.

والأهمُّ قبل كل شيء في مثل هذا السلوك، التسليمُ للقدرة المطلقة والعلم المحيط الذي يتحكم في كل الوجود والأشياء. ولكُم أن تسمُّوا هذا إخضاعَ ثمرات العقل والمنطق، ومختلفِ المناهجِ والبحوث والتجاربِ المختلفة المستحصلة عن طريق العقل والمنطق، لتمحيص الوحي، من أجل ترقية الأرضيات إلى سماويات، وإضفاءِ روح الجوهر على الأعراض.

والحقيقة أن الذي خلق العقل هو الله تعالى، والذي هدى العقل إلى طريق التعمق بواسطة الوحي هو الله أيضا. فلقد فتح الله تعالى عيون بني الإنسان بالعقل، وضَمِنَ للعقل سلامة النظر والتفكيرِ بالوحي، فمهَّد له مجالا واسعا للمحاكمة، وببيانه المحيط أقام على البشر الحجةَ المُلزِمة. بعبارة أخرى: جعل الله تعالى مؤسسة الوحي -التي تضم الكل معاً- بمثابة مختبرٍ لتوحيد السبل المختلفة في شتى المجالات للعقل والمحاكمة التي لا تفتأ تعرض أحوالاً مبعثرة ومنقطعة عن بعضها، ولتمحيص مستحصلات القياس التي استحصلت، ولتمحيص المقاييس أيضاً.

فبناءً على ما سردناه من مجموع الملاحظات هذه، نؤمن بعدم احتمال السير في أمان، ولا العيشِ بلا غلط وهدر في هذه الطرق المختلطة المشتبكة، من غير الاتباع للأنبياء العظام -على نبينا وعليهم الصلاة والتسليمات- الذين كل واحدٍ منهم في عصره أمينٌ وخبير وعليم بالخصوصيات المتنوعة للطرق التي يسلكها. وكذلك نؤمن بأن الوحي إكسيرٌ يحمي عقل الإنسان من شتى أنواع الهذيان، وبأن الأنبياء أطباء حاذقون يستعملون هذا الإكسير حيثما ينبغي. نعم، إن هؤلاء المصطفَين هم مرشدون وضَّاؤون يصونون عقل الإنسان من الانحرافات المختلفة، ويفتحون أمامه آفاقا لاهوتية مما وراء العالم المادي تعدو أهداف العالم المادي. وإنَّ يد العقل والمنطق والمحاكمة التي تبايع هؤلاء المرشدين، تَضْمَنُ في الوقت عينِه الاستفادةَ القُصوَى من طاقاتها. فنحن المؤمنين بالنبوة والوحي، نحترم محصولات العقل والمنطق والملكات العقلية، لكننا نؤمن أيمانا جازماً بأنها لا تملأ ما يتركه الوحي من فراغ قطعاً إذا ما أُهمل، ولا تحل -أبداً- محل مبلِّغي الوحيِ الصادقين والكاملين.

اللّه، الكون، الإنسان.. والنبوة

إن قراءة الوجود والأحداث قراءةً جيدة وتفسيرَها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقةِ الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ"كلٍّ"، والفهمَ التام لتجلي الأشياء -التي بعضها نماذج للبعض الآخر- في صورتها العمومية، ولقوانين الوحدة التي هي ذاتُ صفةٍ كونية ومحيطةٌ بالموجودات... كلُّ ذلك إنما تَيسَّرَ للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة.

وإذ لا زالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروفَ الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإن الأنبياء وقفوا مليا -وبجد- على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها؛ فبعضهم أجمل وبعضهم فصَّل، وذلك بجَهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغاتِ المتوالية من "الماورائيات".

ولم يبلُغ الأنبياء هذه الحقائقَ بطرق البحث العلمية الشائعة في العصر الحالي ولا بالمناهج التجريبية؛ بل بَلَغوا هذا العلم والمعرفة بفضل سعة

قلوبهم وعلاقتهم الخاصة بالله تعالى، إلى جانب كمال عقلهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم، كمالاً يتعدى حدود التصور الإنساني؛ فرأوا أن الوجود كله في تصرفِ قدرةٍ قاهرةٍ، وأطلوا على وحدة العلم والإرادة المهيمنةِ في كل مكان وكل شيء، وقرؤوا وفسروا الشهود والمعالم والإشاراتِ المناديةَ بالواحد الأحد في سيماء كل الأشياء والأحداث، ثم أعلنوا أنهم دعاة التوحيد في المشاعر والفكر والاعتقاد.

ومن العسير أشد العسر، الادعاءُ بأن العلم قد أتى بشيء يُذْكَرُ حتى الآن في العلاقة بين حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ تلك الحقيقة التي أخبر بها الأنبياء منذ مئات القرون. فالعلم لا يزال يحبو في كثير من المواضيع، ويصحح غدًا ما يعدّه صوابًا اليومَ، ويسعى إلى تقويم الغلط المجزوم به بالخطأ المحتمل، بل يراجع نفسه بنفسه باستمرار، ويصون مسلَّماتِه النسبيةَ بفرضيات مختلفة، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود تحليل الجزئيات مهما حاول ذلك. فنستطيع أن نقول: إن العلم لم يضع حتى اليوم حكما ثابتًا في هذه الموضوعات التي تطرّقنا إليها بحيث لم يضطر إلى تبديله لاحقا... فلم يوفَّق العلم في التعبير عن الحقيقة المطلقة البتة، وإن ما بلغه لا يزيد على أنه زادٌ وذخيرة للمسافرين وقرضٌ حَسَنٌ للباحثين.

وأنبّه هنا إلى أني لا أقصد بما قلته التهوينَ من شأن العلم وثمراته، أو الانتقاصَ من أهمية المباحث العلمية؛ بل نعتقد أن العلم وثمراته منظومةُ قيمٍ هامة جدًّا وتستحق التوقير والتقدير. فالمقصود هو التذكير إلى مصدرٍ للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملُها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ في ما يقوله ويرشد إليه... ألا وهو مصدر "النبوة" التي احتفظت

بنداوتها أبدًا، باستثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة... إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كلي وبتقويم شمولي- أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نستقبل ذلك بالتقدير والتوقير؛ لكنَّ جمعًا من المجهَّزين بجَهاز خاص، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان -ولو بشكل إجمالي- هذه المعلوماتِ والتفسيرات التي توصَّل إليها العصرُ باستخدامِ أعظم التكنولوجيات. فإذا كان هناك قسم من الجهات العلمية لم يلتفتوا إليها أو لم يوقروها التوقير اللائق، فإننا نرفع عند ذاك أصواتنا -في حدود أدبنا- فوق أصواتهم، ونجهر بأعلى صوتنا بما نراه حقًّا.

فكم من حقيقةٍ أظهرها العلم الحديث، قد بلَّغها الأنبياء منذ القدم في صور متنوعة وإنْ في فذْلكات مجملة، بنظر كلّي، واستنادًا إلى لدنّياتهم الرحيبة المنفتحة للوحي وإلى أعماق الفطانة المتميزة. فأينما وقعت البحوث المنجَزة بالمختبرات الحديثة والتكنولوجيات المتقدمة من الحقائق التي أعلنوها وحيثما وقفت منها، فإن ملايين البشر لا زالوا يقوّمون الأمور بموازينِ تبليغاتهم وتفسيراتهم، ويَسيرون على خطاهم. وفي الطرف الآخر، فإن أحدث الفرضيات المطروحة باسم العلم والفلسفة، تتغير كل يوم بنظريات جديدة مختلفة. ويعني هذا أن رجال العلم الحاليين يناقشون زملاء أمْسهم ويضعون ما توصلوا إليه على المحك. وبدهي أن نظرياتٍ بدت ثابتةً ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشة والمساءلة لتحل محلها آراء جديدة مختلفة، فتَرحل مُسلّماتٌ كانت تصان في حدقات العيون باسم العلم، متهاويةً واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسلماتٌ أخرى تحط واحدة بعد أخرى! أما الحقائق التي

بلَّغها الأنبياء، فما فتئت تحتفظ بجدارتها -ما خلا تفسيراتٍ تعيسة لمنتسبين ضيّقي الإدراك- باعتبارها أسسًا ثابتة لا زالت تُرجَع إليها أبدًا، وذلك بأنها تستند إلى تبليغاتٍ ورسالات أتت من لدن ذات أجلِّ الأجلاّء وأعظم العظماء -سبحانه- الذي نظم الوجودَ كله كمَشهر وكَتَبَه ككتاب وزيَّنَه كقصر منيف.

لذلك، لابد في الإدلاء بالمعلومات في حق الإنسان والوجود والخالقِ، مِن تَرْكِ المجال لهؤلاء المجهَّزين بجهاز خاص (عليهم أفضل الصلاة والتسليمات)، والمرتبطين بروابط خاصة مع صاحب القدرة المطلقة، كما أنه ينبغي أن لا يقوم غيرهم بإبداء البيانات حول ماهيةِ ومعنَى ما وراء ستار الوجود وما أمامه.

وبدهي أن من أهم وظائف هؤلاء تعيينَ وتثبيتَ المناسبات والتوافقِ والانسجام بين الكائنات والأحداث وبين حياة الإنسان وسلوكياته، وكذلك، إثبات الذات الأحدية ذي القوة، القيومِ على هذا التوافق المنسجم، وتعيينَ مسؤوليات الإنسان تجاهه. فإنهم هم الذين استطاعوا أن يجيبوا -على أصدق وجه وبأسلوب مقْنع- على الأسئلة حول الوجود وبخاصة الإنسان: من أين جاء، وإلى أين راح ويروح، ولِمَ جاء ولِمَ راح؟

ولذلك، لا مناص لنا من اللجوء إلى تبليغات رسل الحق تعالى وحدهم لا غيرهم، لبيان أصح المعلومات وأصوبِها في قضية الغاية والحكمةِ من وجودنا في الأرض، وقواعدِ المسير التي ينبغي أن نلتزم بها في الطريق ومنتهى هذا الطريق. فإذا استطعنا ذلك فسنفهم -تماما- القصدَ والغاية من حركة الكائنات في دائرتها الوسيعة الرحيبة، وسندرك جيدًا ما وراء ستار الوجود وما ينطوي عليه، والمجيءَ والرواح المتعاقبَين

في الأرض والمذهلَين للعقول، فنَصِلُ إلى الاطمئنان والراحة والسلامة في المشاعر والأفكار... اطمئنانٍ وراحةٍ وسلامة نابعة من العلم والتقويم لظاهر الوجود وباطنه، ولما أمامه ووراءه، ومِن إدراكِ موقعنا ومكانتنا على الأرض باعتبارنا جزءًا مهمًّا من الكائنات، حتى نتوافق مع الانسجام العام السائد في الأشياء والحوادث، ومِن توجهِنا إلى الذات العلية الذي أَعد الأسبابَ والوسائل لسعادتنا الدنيوية والأخروية، ومن اعتصامِنا به، ومن إيماننا بتحقق رغبات الأبدية التي تحِنُّ إليها جوانحنا، وبالتالي توقينا الدائم من الانكسار والخذلان.

إن سبل اكتساب العلم ووسائلَه الموهوبةَ للإنسان معينة ومنحصرة. وجليٌّ أن العلوم المكتسبة بهذه الوسائل المحدودةِ، محصورةٌ بطبعها وستبقى محصورة. وأرى أننا سنعجز بهذا القدر من العلوم والمعارف عن فهم الانسجام العام وجوهر النظام الموزون السائد في الأرض، بَلْهَ العجز عن إدراك غاية خلقنا وحكمةِ وجودنا في الدنيا وأصلِ النكتة في مناسباتنا مع الكائنات. والحالُ أن الإنسان يحمل على أكتافه مسؤوليةَ تنظيم حياته وفاقًا لسنن "نظام الكون" المهيمنةِ على الوجود كله، وطبقا لغاياتٍ عُلْويةٍ بموجب موقعه بين الخلق، كما هو مُلزَم بتنظيم حياته وفقًا لما يقتضيه موقعه ومكانته في الوجود. فما لم يُسلِّمْ هذا الإنسانُ زمامَ أمره إلى دليلٍ هادٍ، عارفٍ بيوم هذا السفر المجهول وغدِه، وبمقدمته ومؤخرته، فإنه سيقع لا محالة في أخطاء كثيرة وضنك شديد في مسيرة حياته في طريق الصعود والهبوط والمنعطفات والمتاهات ذاتِ مجاهيلَ وأهوال كثيرة، بل قد لا يبلغ -البتة- الغايةَ المقصودة من خلقه.

فنحن الذين نعجز عن التنبؤ الجازم بما يلاقينا من الفجاءات المحتملة

إبان سيرنا في طريق الحياة، ستخور قوانا وتنقطع بنا السبل، ولا ننجو من التيه والضلال، وسنغلط في قراءة كتاب الوجود، ولا نطَّلع على معرض الكائنات بنظر يرجع بالبركة، ولن نفهم معنَى قَصْرِ الدنيا المنيف وفحواه وأسرارَ بواطنه، ما لم نطع المرشدين والرسل الذين أرسلهم خالقنا الرحمن الرحيم الذي جاء بنا من "عوالم أخرى" ليحط بنا هنا في هذا العالم، ثم يسوقَنا من هنا إلى ديار أخرى. بل زد عليه أننا سنُنيط الأشياء والأحداث -وكل منها من خوارق القدرة- وتظاهراتِ الحوادث وتحولاتِها المختلفة بقوانين الطبيعة، فتتراءى لنا عندئذٍ تلك الخوارقُ البديعة أمورًا عادية ويَدْلَهِمُّ الظلام في آفاقنا.

إن رسل الحق الهداةَ، والمحظوظين المقتدِين بهم، هم الذين قرؤوا الوجود والحوادث قراءة صحيحة دومًا، وسبروا أغوار الجوهر مخترقين الشكلَ والصورةَ، ونَفَذوا إلى لب الأشياء وشاهَدوا المعنى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها. وبتعبير آخر: إنهم -في تفسيرهم للوجود- ركزوا على المحتوى باستمرار، واستلهموا إشاراتٍ من أشعة التجليات المختلفةِ الموجاتِ والتي تُبدي المؤثِّرَ في كل أثر. ولأنهم مضوا في سبيل سياحتهم وتفكرِهم الروحي مشدودين إلى الخالق الجليل، فقد طوروا أجزاء العلم التي حصلوا عليها، فحوَّلوها إلى المعرفة الإلهية، وخاضوا في مناسباتٍ وروابطَ قلبية قوية مع المعروف -سبحانه- وفاقًا لأفق العرفان الذي بَلَغوه، فبلغوا "أُنسا" وافيا بكل شيء في أجواءٍ كالجِنان، فتوجهوا إليه تعالى وهم في شبوبِ مشاعرَ كأنهم تحت شلَّالِ محبةٍ عميقة وذوقٍ روحانيٍّ، في كل آن ولحظة.

فالسعداء هؤلاء، لهم نظر خاص إلى الوجود وما وراء الوجود؛ فهم

يطَّلعون على كل شيء بأنوار البصيرة، ويقوّمون الأشياء والأحداث في الدائرة التي وضَعَتْها فيها قدرة الخالق تعالى، ويتناولون كل شيء بحقيقته في نفس الأمر (بحقيقة جوهره)، وإذ يفسرون الوجود بفهم شموليّ ينتظم كلَّه وجزءَه، يعتنون بتوازنِ كل الأشياء فيما بينها وتناسُبِها، وبروابطها بالخالق تعالى، فلا يقعون أبدًا في تناقض داخلي. ولذلك، هؤلاء وحدهم أفلحوا مدى الدهر في النظر الصائب والفكر الصائب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ فهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا التوحيد بجميع ضروریاته ولوازمه، وهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا الموازنات السليمة بين الأسماء الإلهية والصفات السبحانية والشؤونات الذاتية مع الذات الإلهية... وكذا هم وحدهم عبروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصياتِ دائرةِ الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجلياتٍ مختلفةً لنبع واحد.

ولولا أَنْ تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجزتْ أخصبُ الأدمغة -على توالي العصور والدهور ومع أعظم الهمة والجهد- عن تحصيل مثل هذه الحقائق قطعًا وبتاتا، بل عجزُها ظاهر للعيان بواقع الحال!

وإني لا أجزم منذ الآن، بما قد يطرأ من التغيرات على التفسيرات الحالية للجهات العلمية جراء التوسع في وجهات النظر، نتيجةً للتطورات العلمية في المستقبل، لكن الظاهر عيانًا هو أن دوام الحال -كما هو الآن- محال! ويا ليت أن البشرية التي عاشت في حيرة وغفلة هائلةٍ حتى اليوم، التفتت هنيهة إلى التبليغات الإلهية وتفسيراتِ الأنبياء في شؤونٍ تتجاوزُ إدراكَ البشر مثلِ حقيقة الوجود وما وراء الوجود، وتخلصت مما تتخبط فيه من الجو الخانق الذي تثيره المعلومات المضللة، وحلَّقت في

سماء الإلهامات النبوية... فلعل الإنسان عند ذاك كان سينجح في النظر نظرًا أصفى إلى حقيقة الوجود، ويدرِكُ موقعه ومسؤولياته في الكون، ويَفهم ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ويعي مناسباتِ الأشياء فيما بينها، والتناسبَ السائد والانسجامَ العام في الأوامر التكوينية... فلعله بذاك كان سيعيش وتيرة الدخول إلى المناسبات مع خالقه تعالى من جهة، ويمتنع عن مخالفة النظام السائد في الكون برمته فلا يتصادم مع الوجود من جهة أخرى. لكن بني الإنسان -وبخاصة الأنفس العاصية في عصرنا هذا- لم يحققوا هذا التوجه السائد، بل عَقُّوا الله وعَصَوْه، وبَقُوا متناقضين مع الأشياء والحوادث، فلم ينجوا من العذاب البتة، وما كان لهم أن ينجوا. فكيف، ووسائط العلم الممنوحةُ لهم محدودة، وإمكاناتُهم في حل المشكلات التي تواجههم يسيرة؟ فليس لهم أن يكتشفوا بما يملكونه من الوسائط والإمكانات التي هي أسباب العلم إلا النزرَ اليسير من الوجود، مع التعرض للغلط والتصحيح المستمرَّين، وهو ما حصل.

وكان ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تمام الكائنات المحيطة به، والعالمِ الذي يعيش فيه، والنظامِ الموزون، وانسجامِ الأشياء عمومًا فيما بينها... ينظر إليها حسب سعة الكائنات وتداخلِ الأحداث، ثم حسب رحابِ رغباته وطلباته وآماله، وليس بقدر ضِيق أُفقه وانحصارِ علمه وتبدُّل أفكاره... حتى لا يخيب رجاؤه في الحياة التي يعيشها، وفي الطريق الذي يسير عليها، وفي آماله التي يترقبها بطبيعته في نهاية الدرب. لكنه خاب وخسر مرات ومرات، ولا زال..! ولن ينجو من الخيبة والخسران ما دام غيرَ مبالٍ بطريق سيره وبمصيره.

فإن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والذي سيرحل منها

إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلى معرفةٍ فوق المعرفة الإنسانية، بل فوق الزمان والمكان، حتى يديمَ السير بأمان وثقة من غير ضياع وتلكؤ وشَدَهٍ وقلق، في هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة. والحال أنه في الغالب مسكين عاجز أشدَّ العجزِ، وجاهلٌ بما قد يلاقيه بعد خطوتين، حتى في هذه الدنيا التي يَزعم أنه يعرفها معرفة مكينة! إذن لا يمكنه البتة أن يبلغ إلى ما يتمنى في هذا الطريق الذي يتطلب برنامجًا وخطة وطيدة. فالمسير طويل طويل، والمحطات كثيرة كثيرة، والطريق وعرة، والجبال شاهقة والمهاوي سحيقة. فهل من حاجة إلى بيانٍ للاستدلال على ضرورةِ وجودِ هداةٍ عارفين بآداب الطريق وأركانِه في هذا المسير الشاق إلى المنزل الحق؟

وقد حمل الأنبياءُ كلهم رسالةَ الهداية هذه على مر الزمان، فنشروا الأنوار في طريقِ سيرِ الإنسانية، وكشفوا الغطاء عن أنظار السائرين في الدرب، وأضاؤوا آفاق أَتْباعهم في حقيقةِ "اللّٰه والكائنات والأشياء"، فأنقذوهم من حزن الوحدة وقلق جهل المصير.

لقد خَطَّتْ كلُّ حركةٍ نبويةٍ طريقًا مشتركًا في القضايا الأساسية منذ الإنسان الأول الذي هو النبي الأول: فنَبَّهت -بلا فتور- إلى الأساسيات، كالتوحيد والبعث والنشور والنبوة والعبودية والعدل... وأدامت الإرشادَ والتنبيه وأنواع التحذير بشأن المسائل التبعية حسب الزمان والشروط العامة ودرجةِ النضج الإنساني، ولفَتَتْ -دائما- أنظارَ أَتْباعها إلى الأهداف السامية أبدًا. فخطُّ الاستقامة في الحياة الدينية واحد من حيث الأساسيات. أما في التفرعات، فثم شيء من الاختلاف الذي هو في ذاته ضروري ولازم.

والقرآن هو النداء الأخير والرسالة الأخيرة للإنسانية التي بلغت أشُدَّها. هذه الرسالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسيات المحكَمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووَعدت باستيعابِ متطلباتِ الأزمنة والأمكنة كافة فخَتَمت كتابَ الدين. فعلى الإنسانية من بعدُ أن تَستمر في المسيرة على نورِ هذه الرسالة الأخيرة، وأن تَستخدم طاقةَ التطوير والتغييرِ مربوطةً بنظامها، وأن تحقّق كدح الوصول إلى الحقيقة المطلقة تحت وصايتها.

نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة "مفخرة الإنسانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص.